السعادة

« لا أراك إلا مكباً على كتب الدراسة فلهذه وقت وللراحة أوقات ، وهذا انهماك قد يودى بصحتك وأنت ما تزال طفلا ، هلا تذهب معى إلى الشيخ ، إنى أعتزم زيارته الآن »

هكذا فاجأنى أخى الأكبر ، ولم تكد شفتاه تنفرجان عن آخر كلمة حتى ألقيت ما بيدى جانباً ، وسارعت للحاق به نطوى سهولاً واسمة تنفذ السير على الأقدام ، بينما ترسل الشمس علينا شواظها لهيباً لاذعاً ، وقدماى تغوصان برمال محرقة تجعل مشيتى بخطوات لا اتزان بها

وما إن تراءت لنا تلك البناية ، وهى تقوم على أكمة جرداء تشرف على جانب من سهول قفراء حتى عاودنى نشاطى ، بيد أن أخى استحثنى أيضاً فلوح إلىّ بالشجرة التى تبدو إلى جانب الدار وإلى اللجوء اليها من شعاع الهاجرة اللاذع

وبرز الينا رجل استفزه هرير الكلب اللج ، وإذ عرفنا أومأ إلى كلبه فتنحى إلى ركن أقصى خافتاً عواءه ، كأنه يتلمس عذرا

ورحب بنا مضيفنا العجوز واحتوانا مجلس وثير ، وثير بفراش يتألف من حصير تعلوه وسادة ومخدتان ، فتراخت أعصابى بهدوء حيث الاستمتاع بفيء عميق ، تلاشى معه عنت السفر

وانطلقت عيناى كأنهما تبحثان عن شارد فى نواحى هذا المنزل الظليل وفيما احتواه من أثاث بسيط ، وإلى هدوء هذا الشيخ ووقاره . إنه منزل رحيب ولو أنه مكون من غرفة واحدة تحيط بها أكوام الأحجرة الدائرة من آثار القرون الأولى ، لا يتصل بها من عمران سوى هذا المغار المعد لمأوى عنيزاته ، وهى تبلغ العشر عدا

وفى نشوة هذا الاستمتاع أدركت مغزى اطلاق البدو اسم القصر على أى كوخ يقوم فى عرض الصحراء ، وأقرر أنهم على حق

فأية فخامة تحلم بها فى غبراء يابسة تعدل هناءك حين تحضنك جدران أربعة تغدق عليك فيأها وتطمئن الى سلامتك فيها . إذن هو قصر باذخ . ويزيده رواء هذه الشجرة التى لا ثانية لها فهى تخلع على هذا الكوخ ترفاً يتضاءل معه ترف القصور . هى مخضرة الأوراق وارفة الظلال وهى أبداً باسمة مادام كل ما يكتنفها قاتما ، ويرحب بنا المضيف فى جلال الشيوخ مخاطباً إيانا فى حكمة من وقرت ظهره السنون فتخرج كلماته متزنة فى حين تلمع أسنانه البيضاء التى لم يسقط منها سن واحدة على ما أظن

وقلما يتزحزح من متكئه ، فالى جانبه إناء الماء البارد وأمامه معدات القهوة العربية ويرتفع قريباً منه رف مصنوع من أعواد غير متناسقة يحمل أكواماً من المخطوطات عبث البلى بأكثرها . فهذه كتب يدعوها أسفار الحكمة ، وتلك وريقات يزعم أنها تضاهى صحف موسى ، ولماذا ؟ فهى اتصلت به من جامع قرطبة بواسطة المغاربة الجوابين

وذلك كتيب يقول إنه توارثه عن آبائه الأقدمين وهو يقسم أن القلم الذى بين أصابعه مضى عليه زهاء ثلاثين عاماً لم يبره مرة ثانية بل زامله فى عزلته طيلة هذه السنين فى حالته الراهنة . وهو يجرى علينه رزقاً متواصلاً ، إنه رائد الخير ، به يكتب الرق للبدو ويحبر الرسائل الخاصة ويثبت به كل ما اختزن فى المغار ، وهو لم يرسيباً لتجهيز هذا المغار بباب يحول دون سرقة ما احتواه من سمن وحبوب وصوف ائتمنه عليها البدو مقابل جعل خاص

وهؤلاء البدو تضرهم الطهارة . هكذا يوجه كلامه إلى أخى لأنهم لا يسألونه عن زيادة أو نقصان فى أماناتهم ولا يأخذون بها مستنداً منه . وهم إذ ينصابون مع مواشيهم فى عرض الصحراء طلباً للكلأ والماء ويمعنون فى توغلهم بأطرافها الترامية يرسلون قوافل تمدهم بالمؤونة مما ادخروه واختزنوه عنده

وما يدره عليه القلم إذا أضيف إلى هذا الجعل عن الخزين هى الثروة التى يقنع بها ويحرص على الشكران عليها

واندفع يسرد علينا اطمئنانه إلى عيشه ووجهه يطفح ايناساً وملامحه تفيض بشراً وهناء واعتدل فى متكئه كمن يحاول أن يحاضر فى موضوع فكر والشكر لله إذ هيأ له حياة وادعة ويقول : لم لا أكون مرتاحا وهذا رزقى يأتينى رغداً ، وهذه عنيزاتى تدر علينا حليبها ، ولنا دجاجات تغذينا ببيضها ، ونستقى ماءنا عذباً بارداً من البئر القريبة لمنزلنا ؟